

المتنبى وكافور

بقلم محمد هاشم عطية

المدرس بدار العلوم

منذ أكثر من عام ، والناس يتحدثون عن أبي الطيب ، ويتبارون في تكريمته والاحتفال بذكره الألفية . وفي مصر وفي غيرها من البلدان العربية ، وفي الصحف والأندية ، وبين الكتاب والشعراء ، وفي المعاهد العالية والمحاضر الكبرى - يتطرق المتأدبون بدراسة أدبه وتجديد العهد بالبحث في تاريخه وشعره ، بوضع المحاضرات والرسائل ، وبالترجمة والتأليف والبحث (حتى خصته مجلة ، المقتطف الغراء بعدد من سنتها الحاضرة ، في بحث ضاف ، وتحقيق جديد ، لباحث من نوابغ أدباء العربية .)

ولم يزل كل شاد في الأدب ، وكل متمائل إلى الشهرة ، يتخذ من البحث في حياة المتنبى وسيلة إلى الذكر ، ومادة للتأدب ، ومثارا للتقد والجدل ، وما خلا عصر من عصور العربية ، ولا مصر من أمصار المشاركة من الإغراق في آثار هذه العبقريّة الفذة ، والتحلى بمطلق التناول لهذه الشاعرية الفاخرة ، وتجرد كثير من العلماء في أزمان متعاقبة ، لوضع الأشعار ، وتصنيف الكتب ، في التكريظ والتقد لأدب أبي الطيب . واعترضه الباحثون بالموازنات ، وتحقيق الوساطة بينه وبين شعراء عصره وغير عصره ، وزخرت خزائن الكتب بهذه الشروح والبحوث ، حتى لم يبق لقائل موضع ، ولا لكاتب متعلق ، وكان لك أن تقول : إن كل ما يتعامل به أهل زماننا ، أو يدعونه في أبي الطيب من استخراجهم لدخيل ، أو تحصيلهم لفائت ، أو فصلهم في خلاف ، أو استدراهم على باحث ، إنما هو حديث معاد ، ونقل عن كتاب إلى كتاب . وكذلك كان لك أن تقول : إن من حسن البحث في هذا العصر أن يتناول معه غيره ممن جروا في شأوه ، أو تخلفوا عنه ؛ ليعرف الناس عنهم بعض ما عرفوا عنه ، وليشتد تمييزهم لمكان الفرق بينهم وبينه ، وبذلك يصلون أرحاما

محفوة ، ويفتحون من الأدب كنوزاً دفينه ، ويحسنون الخلاقة في إرثهم عن السلف ، بما لا تزال أسرارهم مصونة ، ومحاسنهم مجهولة ، وهنالك يرى الناس وسع المتأدب ، وجهد الكاتب ، ويعرفون لهم الفضل ، ويجزونهم الخير ، وأما المتنبئ فيكفي أن يتدارس الناس أشعاره ، ويحفظوا أكثر ما يقدرون عليه من قلائده ، ويتفرغوا لطواله وأوابده ، بالخواطف القوية ، والذاكرة القادرة ، توخياً لإقامة السياق ، وحرصاً على السلامة من هجعة النسيان ، لأن الشعر خاصة لا يستغنى عن نصه بالحكاية ، ولا تجوز روايته بالكلام ؛ ولأننا صرنا إلى حال لا نجد فيها الذين يستطيعون الإلقاء من الغيب ، ولا الذين يتمتعون بالمخايل بمحاولة المجازبة ، ولا الذين كانوا يملئون السامر بطرائف الأخبار ، وغرائب الأشعار ، استملاء من حوافظهم ، وقراءة من سجل صدورهم ، فكانوا يحبون للناس الأدب ، ويكثرون بمثل هذه المطارحات الممتعة عشاق اللغة . فيلقون بهذا اللهو إلى الناس أدبا ، وينشئون لهم ثقافة عربية لا تضطرهم إلى التعقب على أنفسهم ، والوقوف بما يروونه موقف الممتحن المثبت ، حتى يتألف لهم من شوارد الأدب ، ولطائف الفطن ما يعظم به موقعهم ، ويشوق النفوس إلى سماعهم ، والاختدم كلامهم ، وهم الطرفاء وأصحاب النواذر الذين يتطيب الناس بملحهم ، ويعمرون بهم مجالسهم ، ويزكون بأدبهم أنفسهم ، ولقد أردنا بمقالنا هذا أن ننبه إلى هذه الحالة ، ونثير أشد الاهتمام بالرجوع إليها ، لتحصيل الحفاظ من أثبات اللغة والأدب ، ولأننا نعتقد أن حظ الرواية من عناية المتأدبين لا ينبغي أن يكون أدنى من شغفهم بالتجليل الأدبي ، والدراسة الحديثة ، والعقلية الخصبية ، والقصص الفني وغير ذلك ، مما تسمع له جعجة ولا ترى طيحناً ؛ لا اعتقادنا بأن ذلك أزين لهم ، وأشبه بأمهم ، وأحرى أن يجدوا من هذه الذخائر عند الحاجة عتادا حاضرا يكسون به سوانحهم ، ويحملون به منطقهم ، وإن كنا بذلك قد أقحمنا أنفسنا في غمار المكرمين لأبي الطيب ، والمحتفلين بتخليده ، ونحسب أننا بما سنقضي به من بعض ما لا حظناه في أكثر ما كتب عنه في أيامنا الحاضرة ، سنكون أبلغ احتفالا وأسنى تكريما ، على حساب أننا

لا تنفى عنه عيبا ، ولا نضيف اليه مفخرا جديدا ، ولا ندعى أننا سنزيل من أمره لبسا ، أو نحل متعقدا ، إلا النظر فى هذه المحاولة التى يراد بها إسناد المتنبى إلى غير أبيه ، واستخراجه من غير معدنه ، والادعاء بأنه علوى النسب ، هاشمى الأرومة ، والالتجاء فى ذلك إلى التأويل للمحكم ، والالتمام للثقة ، والانتحال لكل حيلة لتحسينه من كل تهمة ، وتبرئته من كل مذمة ، والتصدى لاحتمال المكروه عنه ، مع أنهم يعلمون أن وضع الرجل فى غير موضعه ، وإعطاءه ما ليس من حقه ، تهجين لشأنه وذم له ، يظنون أن من ذكر المتنبى فأحسن اليه ، وأحمد الخبر عنه ، وأسبغ من دفاعه ستارا على عيبه - فقد أوتى الحكمة ، وبلغ نهاية الفهم ، وصار مستحقا لاسم الأدب ، وداخلا فى جملة الموسومين عند الناس بالأدباء ، لتوهمهم أن الناس لا يتجرءون عليه ، ولا يقدر منهم على مسافات خواطره ، ومسبح إلهاماته ، إلا الذين أصفاهم ربهم بالفطن ، وأعانهم بتمام البصيرة ، من المنحوتين على مثاله ، والمنتخبين من طرازهم ، ولكن ذلك على ما فيه من المناقضة للتاريخ الثابت ، والمعارضة للصريح من النصوص ، ليس بمنع عنهم شيئا ، ولا بنافعهم قليلا ولا كثيرا ، ولا هو من الأمانة الأدبية التى لا أظن أن التقوية بخلافها يروج على العقول فى أيامنا هذه ، ومع أن الشاعر نفسه قد أسقط عن الناس هذه الكلفة ، وأعفاهم من احتمال هذه المثوبة ؛ باعترافه فى شعره ، وتصريحه لممدوحيه . بأنهم أولى له ، وأفضل عنده من أهله الذين لم يشرف بهم ، ولا تناول ما تناول من المجد بأولهم ولا بآخرهم . وقد آثرنا أن نكتفى فى الاستدلال على ذلك بحياته فى مصر مدة انقطاعه لكافور . ونحب قبل تلخيص هذه الصلة ، أن نذكركم بتقدمة صغيرة لهذا الأمير ، الذى حظى من روائع المتنبى ، بما رفعه إلى مصاف العواهل من هلمات الأهم ، وأفذاذ العالم . ثم عاد فألحقه بأحق من الخشاش والخنازير ، وشتم معه مصر ، وأضحك من أهلها ، ومن جهلهم الأهم ، بما نريد أن نجعله مظهرا لأخلاق الشاعر وصفاته ، وما يتناسب مع ذلك من حسبه ونفسه .

والمعروف كما تقول الكتب: أن كافورا هذا كان عبداً أسود مخصياً، مشقوق الشفة السفلى، بطينا، قبيح القدمين، ثقيل البدن، لا فرق بينه وبين الأمة، وأنه دخل في خدمة أبي بكر بن طنج وولديه الصغيرين، فلما مات سيده، تقيد الأسود بخدمة ولديه وخدمة أمهما. وقرب إليه من شاء. فتقرب إليه الناس؛ من صغر همتهم، وخسة أنفسهم. وسعى بعضهم ببعض، حتى صار الرجل لا يأمن أهل داره على أسراره. وصار كل عبد بمصر يرى أنه خير من سيده، وقد بلغ من أمره أن ملك مصر والشام والحجاز، بعد موت أبي الحسن على بن الأخشيد سنة ٣٥٥ وبقي في هذه الولاية حتى مات سنة ٣٥٧، وفي خلال المدة من سنة ٣٤٦ إلى سنة ٣٥٠ اتصل به أبو الطيب. ولا يعنينا هنا أن نفيض في وصف الحالة الاجتماعية في البلاد المصرية، في ذلك الأوان، وخلوها من أهل البيوتات، ومن ذوى العصية، حتى يخلص ملكها لهذا الخصى، على ما أسلفنا من وصفهم له، وتهكمهم به؛ وإنما يهمنا من هذه الناحية أن يكون كافور على ذلك موضوعاً لهذه المدائح العجيبة من المتنبي، ومحلاً لتفضيله إياه على أهله كما استراه بعد. وأكثر الباحثين يرجحون أن المتنبي رحل إلى مصر مراغماً لسيف الدولة؛ لسأته من طول مقامه معه، ولم يمكنه مما كانت تصبو إليه نفسه، من ولاية ثغر، أو كورة من أعماله، ولما أصابه منه ومن أهل مجلسه من التحميل والإعراض؛ وكان يرى أنه لا يكون أثقل على قلبه مع أحد أبغض إليه من كافور، عدوه ومنازعه في ملكه؛ وكان بالضرورة يطمع من كافور فيما خاب رجاءه فيه عنده، حتى صرح بغرضه هذا في أول شعر أنشده كافورا، في مجلس ملكه، وبين رجال دولته، وهو قصيدته التي مطلعها:

كَفَى بِكَ دَاءً أَنْ تَرَى الْمَوْتَ شَافِيًا وَحَسْبُ الْمَنَايَا أَنْ يَكُنَّ أَمَانِيَا
تَمْنِيَتَهَا لَمَّا تَمَنَيْتَ أَنْ تَرَى صَدِيقًا فَأَعْيَا، أَوْ عَدُوًّا مُدَاخِيَا

يريد أن يقول: كفى بالمرض أن يبلغ بك إلى غاية من الإعضال وانقطاع الرجاء من الإفاقة، ترى معها التخلص بالموت شفاء وراحة. وحسبك

شقوة في الحياة ، أن تصل بك بلواك إلى أن تصير مُنَاك في مَنَاياك ، حين لم تجد بين الناس صديقا ، ولا عدواً يمكن أن يُسَاترك بالعداوة . ولقد تطير كافور من هذا المطلع وتشام به ، ولم يدر ما أوقع هذا الشاعر في تلك الورطة ، مع شهرته المتعامة ، وما يصف به نفسه من العلم والفهم والشعر ، وقد اعتذر عن ذلك بعضهم بقوله : إن أمله لفراقه سيف الدولة ، سبق أمله في كافور ، فقال ماقال ، وهو ما لا ينفي عن الشاعر هذه الهجنة القبيحة ، وفي هذه القصيدة يقول :

قَوَاصِدُ كَافُورٍ ، تَوَارِكُ غَيْرِهِ	وَمَنْ قَصَدَ الْبَحْرَ اسْتَقْلَّ السَّوَاقِيَا
فَجَاءَتْ بِنَا إِنْسَانٍ عَيْنٍ زَمَانِهِ	وَخَلَّتْ يَبَاصًا خَلْفَهَا وَمَاقِيَا
قَتَى ، مَا سَرَيْنَا فِي ظُهُورِ جُدُودِنَا	إِلَى عَصْرِهِ ، إِلَّا نُرْجَى التَّلَاقِيَا
أَبَا الْمِسْكِ ، ذَا الْوَجْهِ الَّذِي كُنْتُ تَائِقًا	إِلَيْهِ ، وَذَا الْيَوْمِ الَّذِي كُنْتُ رَاجِيَا
إِذَا كَسَبَ النَّاسُ الْمَعَالِي بِالنَّدَى	فَإِنَّكَ تُعْطَى فِي نَدَاكَ الْمَعَالِيَا
وَعَيْرُ كَثِيرٍ أَنْ يَزُورَكَ رَاجِلٌ	فَيَرْجِعَ مَلَكًا لِلْعِرَاقَيْنِ وَالْيَا
أَبَا كُلِّ طَيْبٍ ، لَا أَبَا الْمِسْكِ وَحْدَهُ	وَكُلُّ سَحَابٍ ، لَا أَخْصُ الْعَوَادِيَا
يُدِلُّ بِمَعْنَى وَاحِدٍ كُلُّ فَاحِرٍ	وَقَدْ جَمَعَ الرَّحْمَنُ فِيكَ الْعَمَانِيَا

فقرأه جعله بحرا ، ومن عداه ضحضا حاووشلا ، وإنسان عين الزمان ، والناس كلهم مآق وحماليق ، وأنه لا يبعد على زائره أن يرجع ملكا على العراقيين ، وهي أمنيته التي اسخطه عدم تحصيلها ، على قضاء الله في عبادته ، وبقى طول عمره يُريغ الناس بكبرياته وهجائه لمن يعرف ولمن لا يعرف من الحسد والتبرم ، ويقول : إن الناس يفخرون بالمنقبة الواحدة ، من الكرم أو الشعر أو الشجاعة ، وأنت قد جمع الله لك المناقب ، وخصك بما تفرق في الناس من المزايا - قال البديعي : وكان لا يجلس عند كافور بل ينشده وهو واقف ، وإن كافورا دس إليه من يقول له : قد طال وقوفك في مجلسه ؛ ليعلم ما عنده ، فكان جواب أبي الطيب العالي الهمة كما يزعم

ويزعمون أن قال للأسود المشقوق الشفة كما سماه :

يَقِلُّ لَهُ الْوُقُوفُ عَلَى الرَّؤُوسِ وَبَذَلُ الْمَكْرُمَاتِ مِنَ الْنُفُوسِ
قال : وعجيب أن يفعل ذلك بعد هذه الشهرة الطائرة ، ولم يكن كذلك عند
سيف الدولة صاحبه ومنشئه ، وبعد ذلك أنشده قصيدته :

مَنْ الْجَاذِرُ فِي زِيِّ الْأَعَارِبِ حُمْرُ الْحُلِيِّ وَالْمَطَايَا وَالْجَلَايِبِ ؟
ويقول فيها :

مَا أَوْجُهُ الْحَضَرَ الْمُسْتَحْسَنَاتُ بِهِ كَأَوْجُهُ الْبَدَوِيَّاتِ الرَّعَايِبِ
حُسْنُ الْحَضَارَةِ مَجْلُوبٌ بِطَرِيْقَةٍ وَفِي الْبَدَاوَةِ حُسْنٌ غَيْرُ مَجْلُوبِ
ثم يقول لكافور :

يُدَبِّرُ الْمَلِكُ مِنْ مِصْرٍ ، إِلَى عَدَنِ ، إِلَى الْعِرَاقِ ، فَأَرْضِ الرُّومِ ، فَالْزُوبِ
إِذَا أَتَتْهَا الرِّيحُ النُّكْبُ مِنْ بَلَدٍ فَمَا تَهْبُّ بِهَا إِلَّا بِتَرْتِيبِ
وَلَا تُجَاوِزُهَا شَمْسٌ إِذَا شَرَقَتْ إِلَّا وَمِنْهُ لَهَا إِذْنٌ بِتَغْرِيبِ
ثم يقول :

قَالُوا: هَجَرْتَ إِلَيْهِ الْغَيْثَ ، قُلْتُ لَهُمْ : إِلَى غِيُوثِ يَدَيْهِ وَالشَّائِبِ
إِلَى فَنَى تَهَبُّ الدَّوَلَاتُ رَاحَتَهُ وَلَا يَمْنُ عَلَى آثَارِ مَوْهُوبِ .

فتراه هنا رفع كافورا إلى مراتب ما فوق البشر ، إذ جعله يتحكم في قوى الطبيعة ، فيحول بارادته حدة الرياح الهوج إلى لين واستواء ، والشمس لا تغرب عن مصر إلا بآرادته وبعد أن تستأذنه ؛ ثم عرض بصاحبه القديم ولم يحفظ عهده ، وفضل عليه كافورا أيما تفضيل ، إذ جعله يعطي الممالك ولا يشوب عطاءه بما يكدره من المن . ويقولون : إن كافورا كان يكره أن يذكر لونه في مدح أو ذم ، وكان ذكر السواد في أذنه أشد من الموت ؛ ومن العجيب أن المتنبي كان يعلم

ذلك ولم تخل قصيدة من كافور ياته، من ذكر السواد تصريحاً أو تليحاً؛ وقد صرح به في تهنته له بدار بناها جاء فيها قوله :

وَعِمْسُكَ يُكْنِي بِهِ، لَيْسَ بِالْمِسْكَ وَلَكِنَّهُ أَرِيحُ الشَّاءَ
نَزَلْتُ إِذْ نَزَلَتْهَا الدَّارُ فِي أَحْسَنَ مِنْهَا : مِنَ السَّنَا وَالسَّاءِ
حَلَّ فِي مَنبِتِ الرِّيَاحِينَ مِنْهَا مَنبِتُ الْمَكْرُمَاتِ وَالْآلَاءِ
تَقْضَحُ الشَّمْسُ، كُلَّمَا ذَرَّتِ الشَّمْسُ سُسُ، بِشَمْسٍ مُنِيرَةٍ سَوْدَاءِ
إِنَّ فِي ثَوْبِكَ الَّذِي الْمَجْدُ فِيهِ أَصْيَاءُ يُزْرِي بِكُلِّ ضِيَاءِ
كَرَمٌ فِي شَجَاعَةٍ، وَذَكَاءُ فِي بَهَاءِ، وَقُدْرَةٌ فِي مَضَاءِ
يَا رَجَاءَ الْعَيُّونِ فِي كُلِّ أَرْضٍ لَمْ يَكُنْ غَيْرَ أَنَّ أَرَاكَ رَجَائِي

فقد جعله يفضح الشمس حين تذر بوجهه الأسود، الذي جعل لصاحبه هذه الخلاصة من الشمايل من شجاعة إلى كرم إلى ذكاء، إلى روتق وبهاء واقتدار وعزم، وأنه مطمح أنظار الناس من كل الأقطار؛ وانظر إلى هذه القلادة الباهرة :
أَغَالِبُ فِيكَ الشَّوْقَ، وَالشَّوْقُ أَغْلَبُ

وَأَعْجَبُ مِنْ ذَا الْهَجْرِ، وَالْوَصْلُ أَعْجَبُ
أَمَّا تَغْلَطُ الْإِيَّامُ فِي بَأْنٍ أَرَى بَعْضًا ثَنَائِي، أَوْ حَبِيبًا تُقَرِّبُ ؟ ١
ومنها يقول :

إِذَا تَرَكَ الْإِنْسَانَ أَهْلًا وَرَاءَهُ
فَإِنْ لَمْ يَكُنْ إِلَّا أَبُو الْمِسْكِ أَوْهُمْ
وَكُلُّ أَمْرِي يُؤَلِّي الْجَبِيلَ مُحَبَّبُ
أَبَا الْمِسْكِ، هَلْ فِي الْكَأْسِ فَضْلٌ أَنَالَهُ ؟
وَيَعْمَ كَافُورًا، فَمَا يَتَغَرَّبُ
فَأَنَّكَ أَحَلِّي فِي فُؤَادِي وَأَعَذِبُ
وَكُلُّ مَكَانٍ يُذَبِّتُ الْعِزَّ طَيِّبُ
فَإِنِّي أَغْنِي مُنْذُ حِينٍ وَتَشْرَبُ

وَهَبْتَ عَلَى مِقْدَارِ كَفَى زَمَانِنَا وَنَفْسِي عَلَى مِقْدَارِ كَفَيْكَ تَطَلُّبُ!
 إِذَا لَمْ تَنْطُبْ بِي ضَيْعَةً أَوْ وَلَايَةً فَجُودُكَ يَكْسُونِي، وَشُغْلُكَ يَسْلُبُ
 فتراه هنا أيضا ذكر الولاية وفي نظير ذلك كان كافور عنده أشرف من أبيه
 وأعلى عنده من أهله؛ وهذه لا نجد لها عند حسيب يبيع أهله بنسيئة . وبعد هذه
 أنشده قوله - وقد كاد اليأس يشتد في نفسه - : «مَتَى كُنَّ لِي أَنَّ النَّبِيَّاضَ خِضَابُ»
 جاء فيها :

وَهَلْ نَافِعِي أَنْ تُرْفَعَ الْحُجُبُ بَيْنَنَا وَدُونَ الذِي أَمَلْتُ مِنْكَ حِجَابُ؟
 وَفِي النَّفْسِ حَاجَاتٌ، وَفِيكَ فَطَانَةٌ سَكُونِي يَيَّانُ عِنْدَهَا وَخِطَابُ
 وَمَا شِئْتُ إِلَّا أَنْ أَدُلَّ عَوَازِلِي عَلَى أَنْ رَأَيْتُ فِي هَوَاكَ صَوَابُ
 وَأُعْلِمَ قَوْمًا خَالَفُونِي : فَشَرَّفُوا وَغَرَبْتُ ، أَنَّى قَدْ ظَنَمْتُ وَخَابُوا
 جَرَى الْخُلْفُ إِلَّا فَيْكَ أَنَّكَ وَاحِدٌ وَأَنَّكَ لَيْتُ ، وَالْمُلُوكُ ذِيَابُ
 وَأَنْ مَدِيحِ النَّاسِ حَقٌّ وَبَاطِلٌ وَمَدْحُكَ حَقٌّ لَيْسَ فِيهِ كِذَابُ
 وَمَا كُنْتُ (لَوْ لَا أَنْتَ) إِلَّا مُهَاجِرًا لَهُ كُلَّ يَوْمٍ بَلَدَةً وَصِحَابُ
 وَلَكِنَّكَ الدُّنْيَا إِلَى حَبِيبَةٍ فَمَا عَنْكَ لِي إِلَّا إِلَيْكَ ذَهَابُ

وانقطع بعد إنشاد هذه القصيدة ، لا يلقى الأسود إلا أن يركب ، فيسير معه
 في الطريق ، ثم يجعل الرحيل ، وقد أعد كل ما يلزم له على مرور الأيام بلطف
 ورفق ، ولا يعلم به أحد من غلمانه ، وهو يظهر الرغبة في المقام ، وطال عليه
 التحفظ فخرج ودفن الرماح في الرمال ، وحمل الماء على الإبل لعشر ليال ، وتزود
 لعشرين ، وقال في يوم عرفة من سنة ٣٥٠ هجرية قبل مسيره يوم واحد :
 « عيد بأية حال عدت يا عيد ؟ »

وهي أول أهاجيه في كافور ، وإنك ليتولاك العجب الشديد من هذه المناقضة
 السريعة . وجدير بكل أحد أن يحيره هذا الأمر الغريب : مديح مصروف

يرفع كافوراً إلى مالا يطمع فيه الملوك ، ولم يمدح بمثله أحد ، وإلى جانبه وعلى أثره
ومن غير ذنب ولا ترة ، هجاء مقذع ، ينزل بالمهجو إلى أحط من الخشاش والخنازير !
أ يكون هذا جارياً على نوع من العبت والهزؤ ، أم هو جنون وإهتار ، أم خسة
منبت ورداءة أصل ، أم يكون من قلة الحياء وعدم المبالاة على حد : « إذا لم تسح
فاصنع ماشئت » ؟ . إن الذين يفرضون هذا كله ، يجدون من عمل الشاعر ما يحققه
ويثبت ، ولا أدري لماذا يعز على بعض الباحثين أن يكون المتنبى عظيماً في شعره
ووضيعاً دنيئاً في خلقه ، مادام هو الذى يعطى البرهان على هذه الضعة ؟ وهل سمعت
بأن إنساناً يضع نفسه ، ويشرع للتهمة بابه ، وينصب لسهام القالة صدره - نفعه
دفاع متصر ، أو حتمه محاولة متعصب ؟ وماذا يصنع الناس مع أعاجيبه ومدائح
المأضية بقوله :

إِنِّي نَزَلْتُ بِكَذَّابِينَ ، ضَيْفُهُمْ
جُودُ الرَّجَالِ مِنَ الْأَيْدِي ، وَجُودُهُمْ
مَا يَقْبِضُ الْمَوْتُ نَفْسًا مِنْ نَفْسِهِمْ
مِنْ كُلِّ رِخْوٍ وَكَاءِ الْبَطْنِ مُتَفَخِّخٍ
أَكَلَمَا اغْتَالَ عَبْدُ السَّوءِ سَيْدَهُ
صَارَ الْخَصِيُّ إِمَامَ الْآبِقِينَ بِهَا
الْعَبْدُ لَيْسَ لِحُرٍّ صَالِحٍ بِأَخٍ
لَا تَشْتَرِ الْعَبْدَ إِلَّا وَالْعَصَا مَعَهُ ؛
ثم يقول :

مَنْ عَلَّمَ الْأَسْوَدَ الْخَصِيَّ مَكْرَمَةً
أَمْ أَذْنُهُ فِي يَدِ النَّخَّاسِ دَامِيَةً ؟
أَقَوْمُهُ الْبَيْضُ ، أَمْ آبَاؤُهُ الصَّيْدُ ؟
أَمْ قَدَرُهُ وَهُوَ بِالْفَلَسْنِ مَرْدُودُ ؟

وَذَاكَ أَنَّ الْفُحُولَ الْبَيْضَ عَاجِزَةً عَنْ الْجَمِيلِ، فَكَيْفَ الْخَصِيَّةُ السُّودُ؟
ولا نريد أن نعلق على هذا الكلام؛ فما نظن أن أحدا باقيا من أهل الأدب
لم يقرأه، ولم يتعجب من فداذته في الإقذاع والإفخاش، ثم نراه يعارض أول
مدائح فيه من القافية والوزن إذ يقول:

أَرِيكَ الرُّضَالَوْ أَخْفَتِ النَّفْسُ خَافِيَا وَمَا أَنَا عَنْ نَفْسِي وَلَا عَنْكَ رَاضِيَا
أَمِينًا، وَإِخْلَاقًا، وَغَدْرًا، وَخِيَسَةً وَجُبِينًا؟ أَشَخَصًا لَحْتُ لِي أُمُّ مَخَازِيَا؟
أيصح أن يوضع هذا إلى جانب ما تقدم من قوله:

يُدِلُّ بِمَعْنَى وَاحِدٍ كُلُّ فَاحِرٍ وَقَدْ جَمَعَ الرَّحْمَنُ فِيكَ الْمَعَانِيَا
وانظر بعد ذلك إلى ما هو أغث وأبرد وأهجى وأشد، من قوله من تصديده
والاكل ماشية الخيزلي،

لَقَدْ كُنْتُ أَحْسَبُ قَبْلَ الْخَصِيَّةِ م أَنَّ الرُّؤُوسَ مَقَرُّ النَّهْيِ
فَلَمَّا نَظَرْتُ إِلَى عَقْلِهِ رَأَيْتُ النَّهْيَ كُلَّهَا فِي الْخَصِيَّةِ
وَمَاذَا بَعَصَرُ مِنَ الْمُضْجِكَاتِ؟ وَلَكِنَّهُ ضَحِكَ كَالْبُكََا
بَهَا نَبْطِيٍّ مِنْ أَهْلِ السَّوَا د يَدْرُسُ أَنْسَابَ أَهْلِ الْفَلَا
وَأَسْوَدُ مِشْفَرُهُ نِصْفُهُ يَقَالُ لَهُ: أَنْتَ بَدْرُ الدُّجَى
وَشِعْرِي مَدَخْتُ بِهِ الْكَرَّ كَدَنٌ م بَيْنَ الْقَرِيضِ وَبَيْنَ الرُّقَى
فَمَا كَانَ ذَلِكَ مَذْحًا لَهُ وَلَكِنَّهُ كَانَ هَجْوَ الْوَرَى
وَقَدْ ضَلَّ قَوْمٌ بِأَصْنَامِهِمْ وَأَمَّا بَرْقُ رِيَاكِ، فَلَا
وَذَلِكَ صَمُوتٌ، وَذَا نَاطِقٌ إِذَا حَرَكَوهُ فَسَا أَوْ هَدَى
وَمَنْ جَهِلَتْ نَفْسُهُ قَدْرَهُ رَأَى غَيْرَهُ مِنْهُ مَا لَا يَرَى

ولا نكرم هذا الشعر الساقط بأي تعليق أيضا، غير أننا نتهى كلمتنا هذه، بأن

نذكر الناس بما وقع بين زياد النابغة وبين ملوك الحيرة ، حين نفوه ، وأهدروا دمه ،
فارتحل عنهم الى الشام ، وأقام مدة في بلاد الغسانيين ، حافظا باقيا على وفائه وإخلاصه
وقد لطف فطرته ، ووقع بثقوب دهنه وأعراقه ، على أكرم المغاير ، وأجمل
المقاييسات ، في منطق الحجة ، ومعرض العتب ، حتى صار بذلك مثالا للحفاظ
والوفاء ، وهو القائل عند رغبته في العودة إلى النعمان :

مُلُوكُ ، وَإِخْوَانُ ، إِذَا مَا أَتَيْتَهُمْ أَحْكَمُ فِي أَمْوَالِهِمْ وَأَقْرَبُ
كَفْعِكَ فِي قَوْمٍ أَرَاكَ اصْطَنَعْتَهُمْ فَلَمْ تَرَهُمْ فِي شُكْرِ ذَلِكَ أَذْنُبُوا

ويلاحظ المؤرخون على أبي الطيب ، أنه لم يذكر مشاهد مصر في شعره ، ولا
أطرى عجائبها وآثارها ولا نيلها وجسورها ولا أهلها ونزلامها إلا بهذا السخف
التافه في مثل ما قدمنا من قوله : وماذا بمصر ... البيت ولعل في هذه الحالة ، ما يضع
بعض الضوء على حياة امرئ القيس ، الذي جعل بعض باحثي زماننا عدم تعرضه
لذكر القسطنطينية في شعره ، من الأدلة على أسطورية تاريخه . وظاهران امرئ القيس
هنا أعذر من المتنبى ؛ لأنه يطالب بملك مسلوب ، وأما هذا فيحاول الحصول
على إمرة مغتصبة ، على أن لأهل مصر الذين قام نفر منهم بالأمس بتكريمه بعض
السلوى عن شتمه إياهم ؛ لأنه ذم أهل الأرض جميعا قبلهم ، حين يقول :

وَدِهْرُ نَاسِهِ نَاسٌ صَغَارُ وَإِنْ كَانَتْ لَهُمْ جُثَّةٌ ضَخَامُ
وَمَا أَنَا مِنْهُمْ بِالْعِيشِ فِيهِمْ وَلَكِنْ مَعْدِنُ الذَّهَبِ الرَّغَامُ

وقوله أيضا وهو أشنع وأهجى وأدل على سوء الأدب والسخف :

أَذْمُ إِلَى هَذَا الزَّمَانِ أَهْيَلُهُ فَأَعْلَمُهُمْ قَدَمُ ، وَأَحْزَمُهُمْ وَغَدُ
وَأَكْرَمُهُمْ كَلْبُ ، وَأَبْصَرُهُمْ عَمُ وَأَشْجَعُهُمْ قِرْدُ

وبعد ، فقد ترى أن أبا الطيب كان أشعر الناس ولكنه - عفا الله عنه - كان
الأمهم طبعاً ، وأحطهم نفساً ، وأخسهم أصلاً ، كما أراد لنفسه وكأحكى عنها . والله أعلم .